مشروعه «القدس في المنفى» يهدف لتحرير المدينة بالمخيلة

ستيف سابيلا: الفلسطيني يصحو كل يوم ليسأل نفسه عن هويته في ظل الاحتلال الاسرائيلي

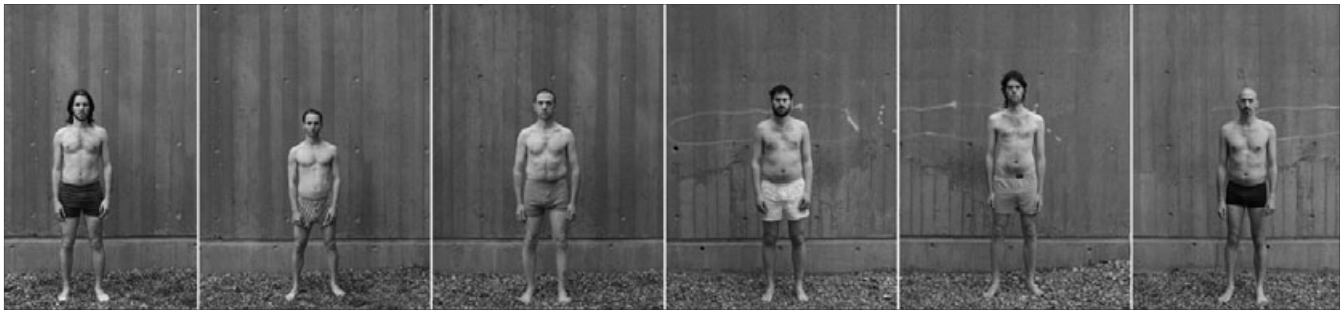

لندن ـ «القدس العربي»

ـ من ليس انس:

قد يكون لنشأته في مدينة كالقدس الأثر الأكبر في صقل شخصيته غير العادية، ستيف سابيلا الذي ولد وترعرع في البلدة القديمة في القدس شعر منذ الصغر انه «من خارج المكان» فيقول ستيف «منذ كنت صغيرا شعرت أنني من خارج المكان الذي كنت أوجد فيه، سواء بالمدرسة او بالبيت او بالحي. هذا الشاب المقدسي الذي أصبح اليوم من أهم فناني الجيل المعاصر في فلسطين لم يتوقف يوما عن طرح الاسئلة المتعلقة بالانتماء والهوية سواء بالمفهوم العام او الشخصي لدرجة أوصلته الى الشعور بالغربة حتى في وطنه.

تعلم ستيف التصوير في مدرسة القدس للتصوير ليكمل بعد ذلك تعليمه الجامعي في الفنون البصرية في جامعة نيويورك، ومؤخرا نال درجة الماجستير في الدراسات التصويرية من جامعة ويستمنستر في لندن. ولم يكتف عند ذلك فها هو اليوم يكمل ماجستيرا آخر في ادارة اعمال الفنون في Sotheby's Institute of Arts في لندن.

لستيف سابيلا العديد من الأعمال الفنية المميزة والمشاركات الفريدة في أهم المعارض العالمية كان آخرها معرض «neighbors in dialog» في اسطنبول وسرايفو، ومعرض «The gates of the Mediterranean» في تورنتو، وهو حائز على جائز «ايلين اوربخ» من أكاديمية الفنون في برلين 2008، ومؤخرا رشح عمله «في المنفى» لجائزة Terry O'neil في بريطانيا. بدأت علاقة هذا الشاب الفلسطيني المميز مع التصوير حين كان في الثانية عشرة من عمره، وقد كان والده من هواة جمع الكاميرات، يقول ستيف «كنت أسرق الكاميرا من والدي وأقوم بالتقاط الصور، وفي هذه الفترة بدأت باكتشاف التصوير كفن وكوسيلة استطيع أن اعكس فيها نفسي، فالكاميرا بالنسبة لي كالمرآة.

■ تبتعد عن توصيفك كمصور، لماذا؟ وكيف تصف فنك؟

■ بالنسبة لي استعمل التصوير كأداة لإيصال شيء ما، فهي اللغة التي أفهمها واستطيع ان اعبر من خلالها، ومنذ العام 1994 وانا اعمل في مجالين، المجال الفني وهو ما يخص المعارض الفنية التي أشارك بها، والجانب الاخر متعلق باحترافي التصوير كمهنة حيث عملت مع معظم مؤسسات الامم المتحدة في فلسطين كالاونروا واليونيسف والـUNDP بالاضافة الى المؤسسات غير الحكومية وكبرى شركات الدعاية والاعلان. ولا أخفي أن ذلك قد اتاح لي فرصة التنقل بين قرى ومدن فلسطين والتعرف عليها وتقديم صورة مغايرة للصورة النمطية التي تنقلها وسائل الاعلام. عرفني أكثر الناس في فلسطين كمصور فني، وهنا أصبح لديهم ازدواجية في المفهوم بمعنى الخلط بين التصوير كمهنة وكأداة ولغة وفن. أنا مثلا ضد تسمية المصور الصحافي «فنان»، فهناك فرق بين ما يقوم به الإثنان. وما أود قوله هنا أنني أخذت بالتركيز أكثر على الجانب الفني منذ العام 2007 وبسباطة حياتي هي عن فني، وفني هو عن حياتي.

■ وماذا تحاول أن توصل من خلال فنك؟

■ الفنانون مرآة للحياة، وأنا حياتي جزء من حياة أشخاص يعيشون تجارب مختلفة، الفرق بيني وبين أولئك الناس هو أنني أحاول أن أعطي شكلا بصريا لهذه التجارب، فالتعبير عن شخص واحد هو تعبير عن عدة أشخاص، وأنا حينما أعبر عن نفسي في عمل معين فكأنما اعبر عن العديدين سواي.

■ كيف بدأ يتطور فهم أن «التصوير أداة فنية» من خلالها يتم إيصال رسالة لدى ستيف سابيلا؟

■ عرفت أن حياتي متجهة للفن حين بدأت أنظر من حولي للأمور ولم ترق لي، هنا بدأت التساؤل عن كل ما يحيط بي، ولما وجدت الكاميرا في يدي عرفت أن هذه ستكون أداتي التي من خلالها أعبر عن ما في داخلي. فلو كنت رساما لاستخدمت ريشتي ورسمت، وجدت أن الكاميرا وسيلة فنية سريعة ومن شأنها أن تنتج اعمالا ذات نوعية وجودة عالية.

■ هل تعتقد كونك فلسطينيا مقدسيا جعل فنك اكثر تميزا عن غيره؟

■ مدينة القدس مدينة معقدة بلا شك، ومنذ أن تولد فيها، تولد معك قضايا عديدة، كالهوية، والانتماء، والوطنية، والدين، والازدواجية.... ليس من المفروض أن تأخذ هذه القضايا مجهودا جسديا وذهنيا من الإنسان الذي يحيا ظروفا طبيعية. نحن الفلسطينيون نعيش في هذه البيئة ونختلف عن غيرنا ممن يعيشون في ظروف عادية وبيئات طبيعية، فهؤلاء يفكرون بحياتهم، مستقبلهم، عملهم، تعليمهم...

هذه العوامل جميعها بالنسبة لي عبارة عن أفكار مبنية constructed ideas بمعنى آخر الواحد فينا يصحو كل يوم يفكر ويسأل نفسه عن هويته في ظل الاحتلال الاسرائيلي. لذلك لجأت إلى الفن كي أستطيع أن أنطق إلى هذه الأسئلة على الأقل وتطويرها بالشكل العميق في الوقت الذي آخذ فيه حياتي مثالا حيا.

■ وماذا عن القدس؟ كيف أثر عليك وجودك في ظل مجتمع يعيش فيه الفلسطينيون مع اليهود؟

■ القدس قدس واحدة، ولا أعني بذلك مفهوم الإسرائيليين لها كقدس موحدة وإنما ما أعنيه هو أن مفهوم القدس الغربية والشرقية بالنسبة لي غير موجود، اعتبر القدس (قدسي أنا: My Jerusalem) وحينما أذهب إلى «القدس الغربية» أو احتك مع يهود فهو أمر طبيعي بالنسبة لي، لم يكن لدي يوما مشكلة مع ذلك. مفهومنا للقدس مفهوم سيكولوجي، فهناك فلسطينيون يشعرون بعدم الانتماء في «القدس الغربية» وهذا بحد ذاته يحقق انتصارا للاحتلال الذي نجح في إشعارهم بعدم الانتماء للمكان. لقد كان من الطبيعي أن أتعرف على يهود وأن تنشأ بيننا علاقات، ليس لدي مشكلة مع الديانة اليهودية، المشكلة هي مع الاحتلال.

هنا روى لي ستيف حكاية قد تكون طريفة ولكنها تعكس واقعا مرا عن التعايش الفلسطيني الاسرائيلي:

في الفترة التي كانت فيها فرانشيسكا زوجتي حامل بابنتنا سيسل، كنت أرافقها إلى الجلسات الخاصة بالأمهات والآباء وخلال ذلك نشأت علاقات صداقة بيننا وبين بعض الأزواج هناك. ولم أخف عنهم يوما حقيقة أنني فلسطيني. وفي إحدى المرات دعانا زوجان إسرائيليان لتناول طعام عشاء يوم السبت في منزلهم (طاولة شابات). لبينا الدعوة ولدى وصولنا لمنزلهم، أعطاني الرجل طاقية اليهود كي ارتديها خلال تأديته لصلاة تبريك الطعام، قلت في نفسي مع أنني لست يهوديا إلا أنني سأرتديها احتراما للصلاة، ومن خلال الحديث اكتشف الرجل الذي كان يظن أنني يهودي من أصل فلسطيني أن الحقيقة غير ذلك وأنني فلسطيني وليس لي علاقة باليهود او الاسرائيليين لا من بعيد ولا من قريب. بالطبع لم يرق لهم ذلك وبدا الامتعاض واضحا على وجوههم. ولما هممنا بالرحيل اقترب إليّ الرجل وقال: أود أن أخبرك أن والدي كان مسيحيا، فأجبته: كنت أعلم أن هناك أمر ما جيد يتعلق بك! ومن هذا اليوم وبعد هذا العشاء الغريب لم يتكلموا معنا قط.

■ مشاريعك «في المنفى» و«القدس في المنفى» تدور حول فكرة النفي والمنفى، حدثنا قليلا عنها ولماذا يتحدث ستيف كثيرا عن النفي؟

■ منطقيا استطيع القول أن كل من يعيش في القدس هو انسان منفي (نفياً ذهنياً) فانا لست منفيا بالمفهوم الجسدي ولكن القدس كمدينة بأكملها منفية. من هذا المنطلق قمت باطلاق مشروع فني عالمي هو «القدس في المنفى» الذي أردت من خلاله تحرير المخيلات والأفكار الموجودة لدى الفلسطينيين عن القدس. فللقدس معان خاصة لدى الفلسطينيين، وعند سؤال كل واحد منا، يقيناً سنعثر على أكثر من توصيف للمدينة؛ فللذين لا يستطيعون زيارتها، أو الذين تُقيّد زيارتهم بإقامة سياحية تفرضها قيود الاحتلال، أو للذين حرموا من حق العودة إليها؛ لهؤلاء جميعاً، كما أعتقد، صور ما انفكت تسكن مخيلاتهم. وبمرور الوقت أصبحت هذه المخيلات أفكارا معلقة ومشحونة بالانفعالات، وظلّت تكافح للخروج إلى الضوء والواقع، رغم حقيقة أن هذا الواقع مقيد ومحتل. ومن هنا، جاءت فكرة المشروع لجمع هذه الأفكار وتحويلها إلى صور بصرية فوتوغرافية. إن هذه التوصيفات الموجودة في أذهان الناس عن القدس منحتني الفرصة لاكتشاف القدس ومعايشتها بطريقة جديدة. وهنا سوف تعمل المخيلة كبعد إضافي وغير مقيد، حيث ستكون الجناح الذي سيحمل تطلعات فلسطيني العالم لكل زاوية من زوايا القدس لـ«تحريرها» بالمخيلة. ستكون تفاعل مخيلات، مخيلتي كفنان منفيّ داخل المكان ومخيلات منفيين خارج المكان.

يمنحنا المشروع فرصة الاطلاع على تاريخ المدينة من خلال المخيلة ولذلك قد يكون له أهمية في الانثروبولوجي، كما انه ايضا يرينا كيف أن الصورة الذهنية عن المدينة تتغير من جيل لآخر فمثلا قد تكون الصورة المتكونة لدى فلسطيني مقيم في البرازيل قد جاءت من والده الذي أخذها عن والده، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل تعكس هذه الصورة حقيقة على أرض الواقع؟ أم انها صورة مبنية فقط في أذهاننا؟

هل نستطيع أن نقول ان المدن يمكن ان تنفى؟ وهذا يجعلني أفكر أن صراعنا مع اسرائيل على القدس هو صراع على «صورة القدس» وليس صراعا «على القدس» التي يتكلم عنها الفلسطينيون والاسرائيليون، فهذه القدس في نظرية المشروع قد اختفت لانها منفية. وباختصار انا احاول خلق «قدس جديدة » لاجدد مفهومنا لهذه المدينة.

■ وماذا عن مشروع «في المنفى»؟

■ منذ قدمت الى لندن لاستكمال الدراسة، زاد يقيني بحالة «التغريب» و«التجزيئ الذهني» الذي يعيشه المنفى بشكل عام. واكتشفت انه من الاستحالة العودة إلى المكان الذي من المفترض انني انتمي اليه لأن هذا المكان اختفى. ولذلك بدأت من خلال التصوير والفوتومونتاج بتجميع مئات الصور جنبا الى جنب لأبني عالما يستحيل وجوده في الحقيقة. وقد أخذت هذه الصور من المحيط الممل الموجود حولي، وشعرت أن العمل قد اكتمل حين نجح بعكس حالة ذهنية موجودة في ذهني.

■ طرحك لآخر مشروع «Settlement, six Israelis and one Palestinian» يعتبر جريئا نوعا ما، ما هي الرسالة التي يحملها هذا العمل؟

■ المشكلة بين الفلسطينيين والإسرائيليين ليست مشكلة على الأرض فقط بل هي أيضا مشكلة سيكولوجية، وأتصور أن أحد حلول هذا الصراع سيكون بمعالجة الناس سيكولوجيا. لقد برزت فكرة هذا المشروع من هذا المنطلق، فقمت بتركيب صور لستة إسرائيليين، كل صورة بحجم إنسان، إلى جانب بعضها البعض، وفي مقابلهم صورتي وكلانا ننظر لبعضنا البعض، إذ تعتمد فكرة العمل على التوتر البصري ويطرح العديد من التساؤلات:

لماذا ستة إسرائيليين وفلسطيني واحد؟

لماذا بالملابس الداخلية؟

لماذا في الخلفية جدار؟

كيف استطاع فلسطيني ان يقنع اسرائيليين بالمشاركة بعمل من هذا النوع؟

..... واسئلة كثيرة أخرى

فإذا وقف المتفرج على العمل ونظر إلى الطرفين سيجد أن ستة إسرائيليين يقفون مقابل فلسطيني واحد ومع ذلك يشعرون بالخوف منه. العمل مشحون لأنه يذكر كيف يقوم الإسرائيليين بتعرية الفلسطينيين في كل مكان وبنفس الوقت يذكر بالـ«Holocaust»..

وهنا يتولد لدى المتفرج شعور أن كلاهما ذات الشيء ولكنهما مختلفان. وهنا يأتي التساؤل الذي أود إثارته حول الهوية وهوية الآخر.

لقد حاول كل من الفلسطينيين والإسرائيليين إظهار وتسويق الصراع بشكل معين آملين في كسب التعاطف العالمي بدلا من التعامل مع القضية من خلال التعمق في صلبها، ومن هنا ذهب كل منهما إلى حرب عاطفية وحرب «كيفية تقديم الآخر للعالم على أنه الضحية أو المعتدي».

■ نراك تقف في مقابلهم وليس إلى جانبهم، هل في ذلك تعزيز لفكرة الاختلاف؟

■ هذه الفكرة بحد ذاتها تخلق توترا بصريا وتعمق فكرة الاختلاف بيني وبينهم أي بين الشعبين اللذين يعانيان من الخوف، فاليهود يخافون من أن يصيبهم ما أصابهم تاريخيا، والفلسطينيون يخافون أن يقتلوا على يد الإسرائيليين. وهذه بارانويا قد تكون مجرد وهم لا أكثر. هذا العمل سوف يخلق حالة تصادم بين مفهومي Identity و Identification، فقد يرى الإسرائيليون صورهم كرموز لهوية وطنية معرّاة، وقد يرى الفلسطينيون اشتراكي في هذا العمل من خلال تصوير نفسي أيضا كتعامل مع المحتل أو كنوع من تصفية الحسابات.

خلق عمل من هذا النوع غير متوازن بصريا، ووجود جدار الفصل كاستعارة وترميز لمعاني الفصل والاختلاف لا شك سيطرح اسئلة كثيرة كالديمغرافية والاستيطان، ومنفذو العمليات التفجيرية، وتعرية الفلسطينيين بحثا عن أحزمة ناسفة، الحدود، الأمن، ومنع الآخر من العبور إلى الجانب الآخر، السيطرة.... والكثير الكثير من التساؤلات.

■ ولماذا اسميته «Settlement»؟

■ لأن السؤال المطروح هو من سيستوطن على هذه الأرض؟ وجود الجدار في الخلفية يأخذنا إلى فكرة الاستيطان، وعدم رؤية الآخر. فبناء الجدار معناه أن إسرائيل لا تريد رؤية الفلسطينيين! ولكن هل من الممكن تلاشي أو إنكار وجود 4 ملايين فلسطيني على الطرف الآخر؟

هذا الجدار الذي نمت التلال لتخفيه وطليت واجهاته باللوحات لتجميل معالمه العنصرية البشعة لن ينجح في تجاهل حقيقة وجود الفلسطينيين على جانبه الآخر. كما يشير العمل إلى فكرة أن الفلسطيني أيضا يرفض وجود الإسرائيلي ويرى أن كلاهما غير متساو لأن أحدهما يحتل الآخر. وكما قلت سابقا الاسم باللغة الانكليزية Settlement يجعل الانسان يفكر بمفهوم تصفية الحسابات، الاستيطان، والمستوطنات.

■ إلى أين تريد أن تأخذ المتفرج؟

■ الفلسطينيون والإسرائيليون ينظرون إلى بعضهم البعض بمنظور جماعي، ويرفضون التعامل بانفرادية، وكل من الطرفين ينظر إلى الآخر بنظرة غير متزنة وخالية من التساوي. وهنا على المتفرج أن يقرر في أي جانب سيقف ومع من سيصطف، ومن جديد نرجع لمبدأ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي الذي كما قلت هو بحاجة لفهم وحل سيكولوجي عميق أكثر من أي شيء آخر.

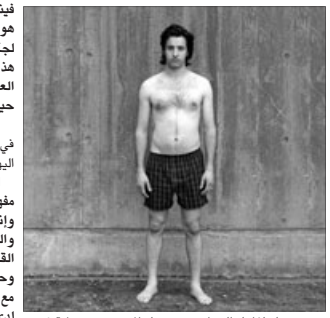

ستيف سابيلا امام الجدار ،ضمن عمله المعنون: مستوطنة، 6 اسرائيليين وفلسطيني» (القدس العربي)